الحب دوحة الادب

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

لا يستهوى الشعراء فى الحياة شيء قدرما يستهويهم الجمال ولا تجذبهم إلا مظاهر السحر فى الكون ، ولا تلفت أنظارهم سوى ملامح التموج بين مجالى الجمال ، هكذا هم دائماً ، وهكذا كانوا فى كل العصور الماضية على نحو ما ترينا النصوص والآثار التى تركوها لنا . وأعجب من هذا أنهم يمتازون بحب الجانب الذى أغفله الناس جميعاً ويهتمون بالنواحى التى لا تشغل الكثيرين ولا تهم الغالبية العظمى من الأحياء . فتجدهم مثلا يلتذون من الصمت المطبق حيث تنفرد النفس بذاتها وتأخذ فى اجترار أفكارها وتحرص على الانسجام الداخلى الخالص . أو ترى بعضهم يتغذى بمشاهد الغرابة والظلمة كما تتغذى الديدان ، فى باطن الأرض ، بالطين والجذور . وعلى هذا النحو نستطيع أن نؤكد اتجاها لم يكن بالعادى فى حياة الشعراء والأدباء من بين مخلوقات الله ، وأن نسجل عليهم ضربا من الهواية الشاذة التى لا يحياها ولا يقبل عليها سوى من ألفت روحه الانزواء والعزلة واعتادت نفسه الغربة والوحشة ومأى قلبه خفقات اليأس والحرمان

والحب من الظاهرات العادية التى تحصل فى حياة كل إنسان؛ ولكنها عند الشاعر تأخذ رسالة أخرى وتتسم بطابع معين وتتشرب بمشرب خاص . وأستطيع أن أكشف لك عن الفارق الذى يميز حب الشاعر من حب الآخرين عن طريق حقيقة نعرفها عن الأديب ، وهى أنه إنسان فردى أو إنسان لا يشترك فى الحياة العامة إلا بقدر حتى يملك الوقت الكافى لتسطير مشاعره وتحبير آرائه . فالأديب — وهذا هو ما ينبغى له — لا يعمل إلا حيث يصير الزمن فى خدمته ولا يقبل على الكتابة والتأليف إلا عندما يفارق الناس . ومهمة الأديب بطبيعتها تلزمه نوعا من الحياة لا يشاركه فيها غيره ممن تقتضى أعمالهم اختلاط الناس والانصراف إلى قضاء الأمور تحت أنظار العامة . وبعبارة موجزة نقول عن الأديب إنه بحكم عمله يأخذ برأى نيتشه فى ضرورة المحافظة على ما بينه وبين الناس من أبعاد . فهو المنزلى بالضرورة ويستحيل أن يحيا كما يحيا سواه بين مظاهر المجتمع البغيضة وتحت رحمة الأوضاع القاسية . ومن هنا يحاول الشاعر أن يوجد لنفسه عالما خاصا وأن يخلق لذاته دنيا من الأوهام التى يسلط عليها ذكاءه وقدرته على الكذب والتخيل حتى تتحول بمضى الأيام إلى واقع ملموس . وتصطبغ كل خطوة فى هذا العالم أو كل حركة تصدر عنه بشيء من الرهبة والقداسة وتأخذ ألوانا قوية فى عقله بحيث تصير موضع احترامه ومهابته

وهنا أهمس فى أذن القارىء سراً لعله لا يعرفه حتى الآن . فأنا أرجو منه أن يشك كثيراً فى حوادث الغرام التى اعتاد الشعراء أن يقصوها على ألسنتهم بمناسبة وبغير مناسبة . إن حياة الشاعر أو الأديب عموما تكون من الفراغ والتفاهة من ناحية الوقائع الجارية بحيث تخلو من أية صفات الجرأة التى تصورها القصائد . وإذا حصل شيء من الأشياء العادية فى حياته فانه — مهما بلغت بساطته — يصير ذا أهمية لديه ويحسبه النعيم المقيم والفردوس الخالد تبعاً لما يعانيه من النقص فى التجارب ومن الفقر فى العلاقات . مثله فى ذلك كمثل الطفل حين تهدى إليه لعبة فاخرة عند حلول المواسم والأعياد أو كمثل الجائع الذى تطعمه طعاما لذيذا بعد أن ظل أياما طوالا غير قادر على امتلاك ما يسد رمقه أو يشفى نهمه . فالشاعر عندما يضفى على الحادثة الطفيفة فى حياته معانى القداسة وعندما يلقى على الأفعال العادية لديه ظلا من الروعة والبهاء ؛ أو قل عندما يحاول أن يضفى على الذكرى البسيطة ضربا من الانكشاف والبروز فهو يأتى ذلك بسبب ما نرى الآن فيه — كما قلنا — من التجربة القليلة والاختبار الشخصى الضئيل . ويجيء علماء النفس بعد ذلك ليقولوا عن الشعراء أو المباقرة إن من خصائصهم الكذب ومن طبيعتهم المبالغة فى التصوير والتهويل عند سرد الوقائع . ولا يأتى هذا من الزعم النفسى فى الحقيقة — كما نرى نحن فى تفسيرنا لهذه الظاهرة — وإنما يأتى من تلك الظاهرة التى أتينا عليها ، وهى أن الأديب بحكم وجوده الخالى من الأحداث الجسام والأفعال العظام قد عوض نفسه بما يحكيه من صنوف الحكايات التى ترضى كبرياءه وتريح غروره .

فالأديب إذا — أو الشاعر — بحكم ما يعانيه فى الحياة من

انزواء وبطبيعة ما تلزمه به أصول معيشته من الفردية والبقاء المستور قد امتلأت نفسه بحب الذكريات التي مرت به على الرغم مما فيها من هزال وما تتصف به من قلة الشأن . بينما قد لا يذكر سواه ، من الناس الذين خاضوا في تجاربه هذه مئات المرات ، شيئاً مر بهم لأنهم اعتادوا في كل الأحوال وفرة وكثرة وسعة في كل الجوانب، ولو أنه صادف كل ما يصادفه الماجن العابث في أيامه الخوالي من متعة وانبساط في ملاقاة الغيد الأماليد وعشرة الغواني الملاح لما أحس في هذه الحركات بروزاً ولا وجد فيها غرابة ولا شعر بأنها موضوع للكلام والحديث

ولكن من الضروري في هذا المقام أن ننبه إلى شيء قد يفوت القارىء، وهو أن هذه الرغبة في الكذب وذلك الجنوح إلى التهويل والمبالغة لا يكونان عند الناقد الواعي محل شك وسوء ظن ، لأن التجربة التي مر بها الشاعر كما وقعت في نفسه ومثلما ألقيت في روعه لا تختلف كثيراً عما يصوره لنا في وثيقته الأدبية. والصدق كل الصدق في الاتجاه الأدبي إنما يأتي من الوفاء عند تصوير الاحساس وعند محاولة الكشف عن سذاجته الأصلية بإزاء أحداث الوجود ، فالشاعر لا يكذب عندما يغالي في سرد القصص ورواية التاريخ مهما خرج عن الحدود الحرفية لما جريات الأمور بمجرد العود إلى تذكرها من جديد ، بل يصف وصفاً ممتازاً لطبيعته النفسية عند إسقاطه لمشاعره الخاصة على الواقع الخارجي الكالح . ونحن — من وجهة النظر النقدية الخالصة — لا نطالب الشاعر بأن يكون راوية أو مؤرخاً بقدر ما نطالبه بأن يكون مصوراً يأخذ بقواعد الفن حسبما تنزل الأشياء من نفسه وعلى نحو ما تصادف المظاهر من هواه

وننتهي من هذا كله إلى أن الفنان حينما يكذب يكون مضطراً تحت تأثير الفراغ الذي يجده في معاشه والتفاهة التي يلقاها طيلة أيامه والشذوذ الذي يتسم به مزاجه . وإذا شئنا أن نتحرى الدقة في هذا الوصف فعلينا بأن نلاحظ مثلا كيف يفعل الشاعر ؟ إذ يضطر بدافع من رغبة الناس في تصيد الملامح الخاصة بالعبقرية بين الأفراد ، إلى أن يبدو في ملامح شاذة وإلى أن يظهر في الخارج ببعض الحركات والشيات التي تعبر عن جوه الداخلي ومما لا شك فيه أن دماغ الشاعر أو الأديب محتوية على كثير مما يثبت نبوغه وجدارته ، ولكن هذا النبوغ وهذه الجدارة لا يظهران الملأ على لافتة من اللافتات التي تعلن عما يكمن في ذاته وعما يختفي بين جوانحه، فيتجه بعضهم إلى التدخين مثلا وقت الكتابة والتأليف حتى يشعر بالتكبير على هيئة الغيوم التي تتلبد في الهواء من حوله وحتى يشعر في عملية أخذ النفس ورد السيجارة — من حين إلى حين — بحركة تجسم عمله الذهني ومجهوده العقلي وتمثل اجتهاده في تصيد الأفكار ونظم الكلام.

فالعمل الفكري هو أبعد شيء عن الظهور وأغرب شيء عن روح الادعاء والرغبة في الإعلان . وهذا هو ما يبعث الغيظ في نفس الاديب ، خصوصاً وأنه ، من بين الناس جميعاً ، يمتاز ببعض الهوس في طلب الشهرة وغير قليل من الغرور والتعالي بالنسبة إلى الآخرين . ولذلك يضطر إلى شيء من الذهاب بالنفس في الخيلاء إلى حد قد يبدو غريباً أمام الذين لا يعلمون شيئاً عن الأوار الذي يلهب صدره ويشعل كيانه من الداخل .

ومن هنا نريد أن نكون حريصين عند ما نأخذ في دراسة الآثار التي تركها الأدباء والشعراء بخصوص المسائل القلبية والمشاعر المتصلة بالوجدان والعواطف التي تفرزها خيالاتهم وأوهامهم وإذا كانت من طبيعة الشاعر أن يجعل موضوع الحب محل العنايته واهتمامه ، أو إذا كان يتجه هذا الاتجاه بالفطرة فلسبب بسيط وهو أنه يعلم تمام العلم بنوع من البديهة أن الحب، من بين المظاهر الإنسانية جميعها ، لا يكون موضع اشتراك ولا يحصل بطبيعته أمام أنظار الناس . ولذلك يسهل عليه تزوير قصصه والعبث بحكاياته والمداراة على عيوبه فيه . فالحب تجربة فردية إلى أقصى درجة ولا يتم جوه إلا إذا خلصت الحياة لاثنين بالذات من بين الآدميين . ولذلك كان يستهوي الشعراء دائماً من هذه الناحية أيضاً ، ويصير موضوعاً ممتازاً من موضوعات الاستغلال المعنوي والتعبير الذاتي .

فالحب يستهوي الشعراء ويكاد يكون موضوعاً لديهم جميعاً باستثناء القليلين لسببين تكلمنا عنهما حتى الآن وأعني بهما ما في الحب من طبيعة السحر والغموض والامتلاء بالأسرار ثم ما في الحب من مجال فسيح الإشباع رغبة الفنان عندما يحاول إعطاء

حياته نوعا من الأهمية وعندما يطمع فى تغطية بعض الفراغ الذى يحيط به من كل جانب .

ثم هناك سبب ثالث وهو أن الحب مملوء بروح المأساة . وهذا فى اعتقادى هو أهم الأسباب التى تدفع الشعراء نحو تصوير عواطفهم بإزاء من يحبون ومن يصطفون بين مخلوقات الله . قد يظن البعض أن المآسى القلبية تأتى بعد انتهاء مدة الحب وفترة التواصل ووقوع الفرقة . ولكن الشىء الصحيح فى هذه الظاهرة هو أن المأساة التى هى من لوازم الحب الأصلية تملأ الشاعر بنوع من الميل وتجذبه جذبا بروائها وسحرها كما يجذب النور الأبيض فراش الليل الهائم بين أودية الظلام . فالشاعر ليس بالعالم الذى يطلب إليه ذكر الوقائع والتقيد بالأحداث ، ولا يستطيع هو نفسه أن يستكنى بالحقائق يذكرها فى غضون كلامه . ولذلك نراه مشوقا إلى الكتابة التى لاتتقيد بالأشياء المضغوطة ولايلتفت إلى المظاهر العامة وإنما ينتهز الفرصة كيما يستبيح لنفسه أن يقول ما يشاء وأن يأتى بالمعنى الذى يحشو به الألفاظ حسب هواه . وبناء على ما تقدم نراه ساعيا فى الطريق إلى استقصاء التجربة القلبية حيث يمضى ولا قيد ، ويسعى ولا رقيب ، ثم يحكى ولا ضابط .

ومن ناحية أخرى يريد الشاعر — تبعا لما لاحظناه عليه من طبيعة المثالاة — أن يسكب على وجوده معنى الألم وأن يكتشف فى حياته طابع الاستشهاد وأن يقحم على كيانه بعض ما يشعره بالهم والمأساة التى هى أصل فى كل خلق فنى والتى يصعب على الإنسان أن يحقق فكرة المرور بالتجربة من غيرها . فالدوحة عند الفنان نوع من الحث على العمل ، وباعث إلى النشاط كما يبعث الجوع واحدا من الفقراء على القيام بالأشغال فى مقابل الرزق الحلال . وإذا خلت حياة الفنان من الأحداث المروعة فهو ملزم بأن يفتش بنفسه عن الارتياع حتى يجد مجالا لإبراز مواهبه . وهذا يشبه تماما سعى الأجير من أجل الحصول على العمل الذى يفتح أمام قواه سبيلا للأداء وطريقا للنفاذ . فالشاعر بطبيعة موهبته مضطر إلى أن يتطفل على حياة الآخرين حتى يجد وقودا لفنه ، حتى يجد مادة لشعره . وإذا صادف من يهيىء له أن يكون هو نفسه طرفا فى القضية وأن يشترك فى التجربة مشاركة ذاتية أصيلة فأغلب الظن أنه لايتردد ، إن لم يندفع اندفاع الأهوج الطائش ، فى أداء دوره اللازم .

ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما جاء فى قصيدة بودلير التى يسميها (ضميمة) من أبيات تصور هذه الحقيقة وترينا خطورة الصلة بين الألم والشاعر . فهو يقول :

كن عاقلا يا ألمى وتمسك بالهدوء أكثر من ذلك ،
فها هو ذا الليل الذى تعلنه قد هبط .
على هيئة جو دامس يكسو المدينة ،
فيحمل إلى البعض سلاما وإلى الآخرين هما .
وحينما تذهب الكثرة الخسيسة من أبناء الفناء ،
تحت سوط اللذة ...
ذلك الجلاد الذى لايرحم ...
لتجمع مباكت الضمير فى الحفل المدنس ،
اعطنى يدك يا ألمى ، وابق إلى جانبى .

فالشاعر إذ يتجه إلى الحب فإنما يفعل ذلك تحت تأثير رغبته الجامحة فى الحصول على الوقود الذى يشعل به نار فنه ، ولكى يرضى فى نفسه نزعة حامية من أجل التطلع إلى موضوع من موضوعات العمل الأدبى ، وحتى يمتر فى ذلك كله على الزيت الذى تستضىء به ذبالة روحه وتتفتح به جنبات قلبه وإذا شئنا أن ندرك عمله هنالك فى مقدرتنا أن نمثله أو نشبهه بالعصفور الذى يبحث عن الأغصان فى الغابة الفسيحة كيما يغنى من فوقها أغنية القلب المحمل بالهموم والشعور الثقل بالمتاعب والفم الذى تخرج الأنات من شفتيه خرساء .

عبد الفتاح الديدى

ادارة البلديات العامة مياه

تقبل العطاءات بادارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٣١ — ١ — ١٩٥٠ عن عملية توريد وتركيب جهاز كلور بعملية مياه دمنهور الجديدة .

وتطلب الشروط والمواصفات من الأدارة على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٥٠٠ مليما خلاف أجرة البريد وكل عطاء غير مسحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ لايلتفت اليه .

٣٩٦٨